

"النهار" تنشر مقتطفات من كتاب غسان سلامة الجديد [1 من 4]

حين تريد أميركا إعادة صنع العالم": المحافظون الجدد... وجوه ومسارات"

الكاتب: سلامة غسان

"حين تريد أميركا إعادة صنع العالم"، تحت هذا العنوان صدر امس في باريس عن دار فايار الكتاب الجديد للدكتور غسان سلامة، وهو اشبه برحلة موسوعية في الفكر السياسي الأميركي منذ انتهاء الحرب الباردة وحتى اختراع العدو الجديد المتمثل تارة بالثلاثية الجهادية وطورا بديكتاتورية صدام حسين.

وإذ يستعيد غسان سلامة زخم المحلل الذي ميّز كتاباته السابقة، إلا أنه لا يتأخر عن وضع خبرته السياسية والدبلوماسية في تصرف القارئ، سواء في منصبه السابق كوزير للثقافة في لبنان مولج تنظيم القميتين العربية والفرنكوفونية عام 2002، أو كمستشار لمندوب الأمم المتحدة في العراق ثم لأمينها العام. ولعل هذه المعرفة المباشرة بالسياسة الأميركية، وخصوصا في شقها العراقي، ما يشرح هذا الكتاب لأن يشكل حدثا في عالم النشر الغربي.

وستنشر "النهار"، بإذن من المؤلف، مقتطفات من الكتاب، تبدأها بالتعريف بتيار "المحافظين الجدد."

بقي إيرفنج كريستول، لمدة طويلة، الوجه الأكثر شهرة بين المحافظين الجدد (وهو من أعلن ابوته لهذه التسمية) سواء بسبب تبنيه المبكر للمشروع الامبراطوري ام بسبب تصريحاته النارية ضد استقالة المثقفين. وكان يصدمه موقف هؤلاء الذين صعدوا من انتقاداتهم لحرب فيتنام: "يتجه متقوننا نحو مواجهة مع المؤسسة الحاكمة في أميركا (...). من مصلحتهم افساد أي تطور لسياسة امبراطورية متماسكة ومسؤولة (...). لكن أي نجاح تحققه السياسة الامبراطورية يتطلب ارشادا فكريا واخلاقيا (...). الانتلجنسيا في مجملها، النافرة من السلطة القائمة، لا تملك أي حس بهذا النوع من المسؤولية. فهي لا تحسن سوى الاستنكار والتسخيف والتشهير" (كريستول، 1967). هكذا حدد ميزتين لتيار المحافظين الجدد على الطريقة الأميركية: شكل من اشكال الاعتراف بدور الافكار رغم غربة الانتلجنسيا (سيكتب لاحقا): "ما من أمة حديثة توصلت الى صياغة سياسة خارجية مقبولة من متقفيها" (ورد في بولتون، 1997-1998) والطموح الى احتلال موقع المنظر للمشروع الامبراطوري الأميركي وان كان الامبرياليون أنفسهم لا يعاون كثيرا بالأفكار. وهو لم يتردد، في كل حال، بتقديم نفسه كعراب لحركة المحافظين الجدد - "اندفاع أكثر منها حركة" يقول عنها.

إيرفنج كريستول نفسه اطلق تعريف تيار المحافظين الجدد على أنه محافظ متحرر من الحنين الى الماضي ومن احترام التقاليد (لكنه نصح ايضا جميع الاديان بـ"عدم الانصياع الى الحداثة" وغالبا ما يظهر عليه الحنين الى عادات الماضي)، مما يسمح له بالتأكيد ان على اليهودي (ولد كريستول في عائلة يهودية متشددة من بروكلين) اعتماد الاخلاق البورجوازية بدل ان يشعر بالضيق منها، وما يدفع بذلك الملحد السابق الى أن يأخذ على الآباء المؤسسين اقضاء الدين عن الحيز العام (...).

عام 1987، استقر كريستول في واشنطن حيث التحق بمؤسسة الدراسات "امريكان انتربرايز" التي ابتعدت بدفع منه عن التوجه الجمهوري التقليدي لمؤسستها بيل بارودي كي تتبنى توجه المحافظين الجدد وتتحول الى هيكلهم. كما تسلّم كريستول على وجه الخصوص المجلة الفصلية المثيرة دائما للاهتمام، "ناشيونال انترست". فتحول الى صوت مسموع في السياسة الخارجية فيما كانت الحرب الباردة تتداعى. اتخذ تلقائيا (كريستول، 1990) موقع صانع الانطلاقة الجديدة من صفر، رافضا في الوقت نفسه الامميين قدامى وجدداً والانعزاليين من يمين او يسار، من اجل نوع من التقديس للـ"مصلحة الوطنية". هكذا تشكل حيز التعايش، ولو غير المضمون دائما، بين "القوميين" المتصلبين امثال كيسنجر وبرينجسكي او هانتغتون وبين تيار المحافظين الجدد ومن رموزه كيركباتريك، وولفوفيتز وكريستول نفسه، والتيار هذا منبثق من التوجه الجمهوري الريغاني الذي شهر به لوقت طويل (...).

قبل تسلمه مقاليد مجلة "كومنتري"، كان أحد الآباء الروحيين لهذا التيار، نورمن بودورتز (والذي قلده جورج والكر بوش ارفع الاوسمة الأميركية في عام 2004) مناهضا للانفراج الدولي. وكان يكن عداا خاصا لهنري كيسنجر لانه نظر لهذا الانفراج ووضع موضع التطبيق. حتى ريغان لا يحوز رضاه اذ يتهمه بأنه لم ينجح، خلال ولايته الاولى، في اخراج البلاد من منطِق الانفراج هذا بغية تبني سياسة احتواء نشطة كان من شأنها تشجيع قوى التفكك الكامنة في الاتحاد السوفياتي (بودورتز، 1984). عندما يحدد المحافظون الجدد عدوهم فانهم لا يتهاونون في اي تسوية معه باسم الواقعية او طول الأناة. فهم، المسكونون بهاجس الحرب العالمية الثانية، يجدون عند كل ناصية صورة عن هتلر لا يجدر التردد في القضاء عليها (...). تصلبت مواقف "كومنتري" منذ نهاية سبعينات القرن الماضي عندما توقفت عن كونها منبرا انتقائيا مفتحا على كل تيارات الفكر اليهودي الأميركي لتصبح اداة لـ"صقور" الحرب الباردة الأكثر تطرفا (مما دفعني منذ 1983 الى كتابة مقالة طويلة في هذا التحول الجذري).

هناك قديس شفيح للانحراف "المحافظ الجديد" داخل ادارة جورج والكر بوش الذي يغذيه هؤلاء المنظرّون المسهبون في الكلام والافكار، الا وهو نائب الرئيس ديك تشيني. كما ان له رئيس اساقفة هو مساعد وزير الدفاع بول وولفوفيتز. يلاحظ جايمس فالوز ("اطلنطيك"، آذار، 2002) ما يؤكد كثر من المراقبين من ان "تشيني ورامسفيلد وولفوفيتز يشكلون فريقا". وولفوفيتز، المثقف بامتياز داخل المجموعة لا يكثر من الكلام ناذرا نفسه للعمل (انه فيل غورمان، البطل الصاعد نحو دور وطني في رواية "رافلشتاين" المرمزة لكاتبهم المفضل، حامل جائزة نوبل، سول بيللو). ان وولفوفيتز في كل حال رجل حلو المعشر، متنبه، بسيط، مهذب لكنه أسير صياغاته الخاصة يبدو عاجزا عن التحرر منها في مواجهة من لا يشاطره الرأي. (...) ربما يكون وولفوفيتز

انجب تلامذة ليو شتراوس، أقله في نزعة واحدة: الحذر من اشهار اقتناعاته العميقة التي لا يفترض بالجمهور العريض فهمها او حتى الاطلاع عليها. انها ليست أبسط تناقضات هذا الداعية الى حملة لا هوادة فيها من اجل الديمقراطية في العالم. اذا ما تحدثت او كتب يبدو وولفوفيتز متصنعا، معتدلا، متواضعا، لكن جميع التقارير التي تنقل موافقه من المناقشات الحكومية الداخلية تعكس صورة مغايرة تماما. فيظهر هناك مبهورا بالقوة العسكرية، غير مهتم بالوقائع ومهووسا بافكار بسيطة بقدر ما هي خاطئة. لست الوحيد الذي شعر بهذا التناقض عند مقابلي له في مكتبه الكبير في البنتاغون. يصل بيتر بوير (مجلة "نيويورك" 1 تشرين الثاني 2004) الى الخلاصة نفسها بعد ان يرسم عنه صورة ايجابية كما في قوله: "برغم الاجماع على الاعتراف بذكائه ورغم برودته التي تذكر بأصوله الجامعية، الا انه دافع بصورة منهجية عن مواقف الصقور الاكثر عدوانية". فقبل ثلاثة اعوام من حرب العراق، أوضح صراحة انه لا يمكن مقارنة الحالات المعاصرة (2000) مع مثلي اليابان والمانيا، ومع ذلك نصح رجاله بمطالعة كتب عن هذين البلدين قبل التوجه الى بغداد. كما أقدم تحديدا على هذا النوع من المقارنة خلال زيارته الى بولونيا عام 2004. وهو لا ينفك يعلن تفاؤله بالطبيعة البشرية وبفرص الديمقراطية ليعبر في ما بعد عن مخاوف تزرع الهلع في النفوس حول الاخطار التي تتهدد اميركا. يعتبر تشكيل الاحلاف من الاهداف الرئيسية، لكنه عندما قوم السياسة الصبورة للرئيس بوش الأب من أجل انشاء تحالف 1990 لتحرير الكويت، اعتبر ان "تصميمه الشخصي كان اهم من اتصالاته ببقية زعماء العالم. (1994) "يقول حول عمليات التدخل الاميركي في العالم انه يبحث عن حلفاء لكنه يكتب ايضا "ان من يرفضون مساندتنا سيندمون على موقفهم هذا حتى آخر يوم من حياتهم" (2000). يعتقد ان نشر الديمقراطية بحاجة الى قوى محلية (2000) وإذ به يكتشفها في العراق حيث لا وجود لها. فيتوجه بالقول الى جندي اميركي جريح، بعد 18 شهرا على بداية الحرب، ان "89 في المئة من العراقيين يحبون الجيش الاميركي" ما اعتبر، من باب الاحسان له، "مبالغة كبيرة" لا غير (...).

يحتل دافيد بيرل موقعا خاصا داخل المجموعة. إنه "السياسي العملائي" بامتياز، ويمكن الاستدلال على ما كان له من تأثير في كل المبادرات المستوحاة من مواقف المحافظين الجدد أكثر مما يمكن تقفي آثاره في مقولاتهم الفلسفية. أصدر، في بداية عام 2004، مع ربييه دافيد فروم والمبتدع الفخور لعبارة "محور الشر"، كتاب "نهاية الشر" وهو بمثابة "خريطة الطريق" الخاصة به: بعد اجتياح العراق الذي دافع عنه دون أي تحفظ، يطلب بيرل من الولايات المتحدة التصدي لاجراء "المحور" الآخرين أي لسبع دول اضافة الى افغانستان والعراق. وعندما تخلى عن كل مسؤولياته الحكومية، يكرس وقته للاعمال التجارية ويترك هذا "الصقر" العنان لتأملاته بدون احراج الادارة الاميركية مكتفيا بتقديم "النصح" لها. يسمح له وضعه هذا بالدعوة الى مغامرات عسكرية جديدة وبالقول ان "الصقور هم الواقعيون الحقيقيون" والبحث في كل مكان عن تتين يطالب بالقضاء عليه وتوجيه اتهامات لا اساس لها من الصحة بحيث تزعج احيانا اصداقاه انفسهم. لكن بيرل يمكنه ان يجسد، أكثر من اي منتسب آخر الى هذا التيار ويفضل ما يتمتع به من حرية قول وحركة، الالتزام الجماعي ليس حيال اسرائيل وحسب بل تحديدا حيال حزب الليكود وخط سياسي يشكك في احتمال ابرام السلام مع الفلسطينيين، ويكن العداء الشديد للاسلام الجهادي بقدر القومية العربية. انه يتبنى في ذلك تماهيا كاملا للمصالح بين اسرائيل شارون ونتاجها هو واميركا بوش وتشيني .

من الجيل الثاني في صفوف المحافظين الجدد، نجد خلفين لخير سلفين في موقع التوجيه الاستراتيجي: وليم كريستول (ابن ايرفينغ ومدير مجلة "ويكلي ستاندارد والمخطط الاستراتيجي في الحزب الجمهوري) وروبرت كاغان (ابن دونالد). في انتخابات الرئاسة لعام 1996، ودون التوهم في انتصار المرشح الجمهوري دول، دعا الى سياسة ريغانية جديدة تتجاوز التوافق الفاتر بين انصار كلينتون والواقعيين من امثال كيسنجر. انهما من انصار الهيمنة الذين يحاولون اطالة أمد "اللحظة الاحادية القطب" بالارتكاز على "تفوق عسكري وثبات اخلاقي". لذلك يطالبان بزيادة سريعة وضخمة لموازنة الدفاع وتعبئة وطنية في الداخل وشفافية اخلاقية تؤدي الى "اطاحة الانظمة" حيث هناك "مسخ" متسلطون في انحاء العالم (...).

اعتبر ايليوت ابرامز لوقت طويل الفتى الناجح، "غولدن بوي"، في تيار المحافظين الجدد. وقد عاد الى الواجهة مع الرئيس بوش الابن بعدما ساد اعتقاد لوهلة أن أمره انتهى. فالرجل صاحب ذكاء ولا يظهر كبير تسرع من اجل سياسة "القطب الاوحد" (1992) بل يبرهن واقعية وحتى تعاطفاً مع البلدان الفقيرة عند مقاربة المسائل الاقتصادية (...). (1993) اصدر خلال اجتياز الصحراء بعيدا عن الحكم كتابا بعنوان "ايمان ام خوف؟" يحذر فيه اليهود من الاميركيين من الدوبان في المجتمع ويمتدح بقوة الاصوليين المسيحيين، متغاضيا عن انحرافاتهم اللاسامية. يتفق مع مجموعة المحافظين الجدد الداعية الى اطاحة صدام حسين ويصبح في مجلس الامن القومي اليد اليمنى لكوندوليزا رايس في شؤون الشرق الاوسط. تميز داخل هذا المجلس، اضافة الى ذكائه وذاكرته العجيبة، بنجاح حيائه لتأجيل وعد بوش بتسهيل اقامة دولة فلسطينية الى امد غير مسمى، واطاحة الى اقضاء أي خبير معروف في شؤون العالمين العربي والاسلامي من مكاتب هذا المجلس (...).

قد يكون كارنز لورد خير نموذج لمسار المحافظين الجدد: اعاد هذا الطالب في الفلسفة قراءة ارسطو على خطى ليو شتراوس وكان يمكنه ورائة المعلم في العديد من اقسام الفلسفة في الجامعات حيث يدرس تلامذته. لكنه فضل الدخول ايضا الى مجلس الامن القومي قبل ان يصبح استادا في "معهد البحرية العسكري" حيث خاض حربا ضد "برابرة الداخلة" من انصار حقوق المرأة وغيرهم من انصار التعددية الثقافية، متدحا الذكورة والفضائل الاسبرطية وداعيا الى المحافظة الاجتماعية الرجعية (...).

هناك العديد غير هؤلاء لكننا اخترنا فحسب، ذكر اصحاب الدور والنفوذ المتورطين مباشرة في التوجه الامبراطوري الجديد للبيت الابيض ابتداء من 2001. يبقى القول، من جهة، ان المحافظين الجدد، لم ينتقلوا بعدهم وعديدهم الى الحزب الجمهوري، فها هو بيرل يدعي انه لا يزال ديموقراطيا. كما انه ليس صحيحا، وخلافا لما يكتب، أن المحافظين الجدد احتكروا الدعوة الى قيام المشروع الامبراطوري وان "كنيستهم" اذا ما تفرقت ستودي بمشروع برهن بازفيتش انه أكثر عراقا وتجزرا من الدعوات الحارة التي اطلقها تلامذة ليو شتراوس واصداقاه ايرفينغ كريستول.